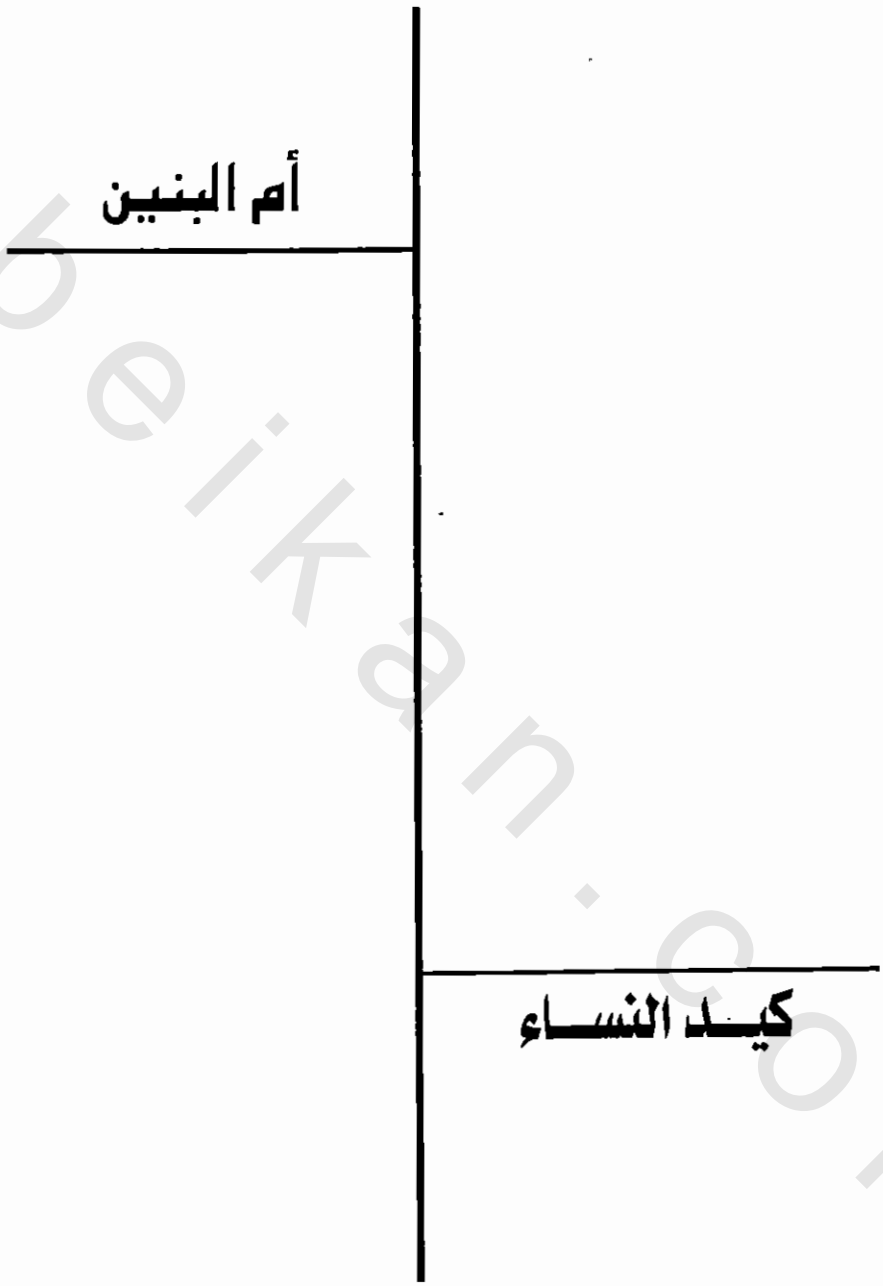

obeikan.com

obeikan.com

أم البنين

زوجة الوليد بن عبد الملك

أم البنيـــن

هـي زوجة الوليد بن عبد الملك وابنة عمة عبد العزيز - أخت عمر ابن عبد العزيز .

وفـد الحجـاج بـن يوسـف على الوليد بن عبد الملك في مقر خلافته بالـشام فـوجده في نـزهة فاستقبله ولما رآه الحجاج نزل عن فرسه وتقدم نحـوه . . وقـبل يـده وسـار إلى جـواره ، وكان عليه درع وقوس عربية ، فقال الوليد للحجاج:

- اركب يا أبا محمد.

فأجابه الحجاج في نبرة كلها خضوع ومسكنة:

- دعنى أستكثر من الجهاد في خدمتك يا أمير المؤمنين .

ولمـا وصلا دار الخلافة وجلسا أطالا الجلوس والحديث ، وبلغ الخبر إلى أم البـنين زوجـة الولـيد بأن رجلا عند زوجها وهو في عدة الحرب ، ووصـفه مـن نقـل إلـيها الخـبر بأن بيده رمح وعلى رأسه خوذة معدنية ووجهـه معفر يحمل في وسطه سيفا صقليا وخلف ظهره كنانة قد غضت بالسهام والنبال .

خـشيت أم البـنين على زوجها وأرادت أن تطمئن وتعرف من ذلك الـرجل المـدجج بالـسلاح في مجلـس زوجهـا خـشية أن يـصيبه بـسوء ، فأرسـلت جاريـتها إلى الوليد تسأله من ذلك الأعرابى الجلف المدجج في السلاح عندك؟

وذهـبت الجاريـة إلى الولـيد علـى اسـتحياء وحـذر فأخبرته سرا بما

قالت لها مولاتها ، فأخبرها أن جليسه الحجاج وأمرها بأن تخبر أم البنين بألا تخاف ولا تضطرب ، لكن أم البنين راعها ذلك لما تعرفه عن الحجاج .

والتفت الوليد إلى الحجاج فقال له:

– أن ابنة عمى أم البنين تقول لى: ما مجالستك هذا الأعرابى الغارق في سلاحه! ألا تخشى غدرة منه؟

فأرسلت إليها وأخبرتها أنه الحجاج بن يوسف .

وبعد قليل عادت الجارية لتخبر الوليد مشاعر أم البنين .

– والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق وأهل الطاعة ، والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلىّ من أن يخلو بك الحجاج بن يوسف .

وذعر الحجاج ذعرا شديدا لرأى أم البنين فيه أو ربما لأنها عرته أمام نفسه وأمام الخليفة ، وما يمكن أن يكون لذلك الرأى من أثر عليه لكنه أظهر جلدا مصطنعا وأخذ يتحدث مع الوليد ويحذره بصفة الناصح الأمين من النساء كنوع من الدفاع ، فقال:

– يا أمير المؤمنين: دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة (لفظة فارسية تعنى الخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده) فلا تطلعهن على سرك ولا على مكايدة عدوك إن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن ، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع عندها لغيرها ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك .

ولما انتهى الحجاج من مقالته استأذن الوليد فأذن له فنهض وخرج إلى معسكره ودخل الوليد على زوجته أم البنين فحدثها برأى الحجاج في النساء وأخبرها مقالته عنهن ، فأسرت أم البنين ذلك في نفسها ولم تبد شيئا لزوجها ثم تقدمت في استحياء للوليد وقالت له:

- يا أمير المؤمنين: أتسمح لى أن أطلب منك شيئا؟

- الوليد: وما هو؟

- أم البنين: يا أمير المؤمنين أحب أن تأمر الحجاج بن يوسف بالتسليم علىّ في الغد .

- الوليد: افعل إن شاء الله يا ابنة العم .

وفى اليوم التالى قدم الحجاج مبكرا على الوليد فلما جلس قال له الوليد:

- يا أبا محمد: اذهب إلى أم البنين فسلم عليها .

فقال الحجاج وقد علاه الوجوم:

- اعفنى يا أمير المؤمنين إن شئت .

فرد عليه الوليد مؤكدا:

- ويحك . . لابد من ذلك ولتفعلن .

فقال الحجاج مسلما لما سيحدث في هذا اللقاء:

- سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين .

وذهب الحجاج يقدم رجلا ويؤخر أخرى فهو يدرك قيمتها ويعرف من هي أم البنين ويعلم رأيها فيه ويعلم كذلك رأيها في أخيه محمد بن يوسف وما صار إليه ولكنه خفى عليه ما ستقول وما سيفسر عنه اللقاء .

علمت أم المؤمنين بقدومه فأمرت أن يظل فترة طويلة في انتظار لقائها ، فوقف في ذلة أمام مقصورتها يضرب أخماسا فى أسداس ، وبعد مدة طويلة أمرت الخادم بالإذن له فدخل لكنها لم تأمر له بالجلوس بل تركته واقفا على قدميه ولم تأذن له بالجلوس وابتدرته قائلة من وراء

سترها:

- إيه يا حجاج . . أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد الله بن الزبير ابن حوارى رسول الله ﷺ الصوام القوام المستغرق الساعات في الطاعات ذى المناقب الشهيرة الكثيرة وابن أسماء ذات النطاقين وأول مولود بالمدينة المنورة من المسلمين بعد الهجرة ، وأنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وأخذت أم البنين تقرع الحجاج وتذكره ببعض فظائعه وجرائمه ، وأبانت له قبح منظره وسوء مخبره وشراسة خلقه ، ثم أتبعت ذلك بقولها:

- ويحك يا بن يوسف أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه وأهون خليقته ما ابتلاك برمى الكعبة بحجارة المنجنيق وقتل لتقى النقى ابن ذات النطاقين ، فأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم (التقيا في أربعة وثمانين موقعة انتصر بن الأشعث في ثلاث وثمانين والحجاج في واحدة) حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق ما يكون من أمرك وأوهن من بيت العنكبوت فأظلتك رماحهم وحجبتك عن الأخطار سيوفهم ونصرتك عزيمتهم وقهر الأعداء كفاحهم ، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء فلطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن والحلى من أيديهن وأرجلهن وبعنه في الأسواق حتى أخرج في أعطيات أهل الشام إليك ولولا ذلك لكنت أذل من البقة .

- ويحك يا حجاج: إن ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع عن بلوغ أوطاره من نسائه فإنه غير قابل منك ذلك ولا مصغ إلى نصيحتك فإن كانت النساء يلدن مثلك كما ولدت أمك فما أحق بالأخذ عنك والقبول منك ولا مصغ إلى نصيحتك .

وحجم الحجاج بعد ذلك الدش البارد وفغر فاه ولم يجد جوابا على تقريظ أم البنين التي لم تتوقف عن تسميم بدنه وتفعل به ما لم يفعله الرجال ، وقالت تعيره بفراره من عزالة الحرورية امرأة أبى الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم بطل الخوارج ، وقائدهم في عهد عبد الملك ، والحجاج وقد ولدت في الموصل وكانت فارسة شجاعة ، وقد خرجت مع زوجها شبيب سنة ٧٦هـ على عبد الملك بن مروان أيام ولاية الحجاج فكانت تقاتل في الحروب بنفسها حتى أن الحجاج نفسه هرب منها في بعض المواقع فعيره حطان بن عمران بذلك في قوله:

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ::: فتخاء تنفر من صفير النافر
هلا برزت إلى عزالة في الوغى ::: أم كان قلبك في جناحى طائر
صرعت غزالة قلبه بفوارس ::: تركت نواظرة كأمس الدابر

وبلغت غزالة من الجسارة وقوة القلب ما خلع قلب الحجاج .

ثم قالت أم البنين لجواريها:

- أخرجوه عنى .

وهكذا جمدت دمه في عروقه وطردته شر طردة فأخرجوه لا يعرف الطريق لدهشته ولما ناله من أم البنين ، فدخل على الوليد الذي رأى منظره وما هو فيه فسأله عن حاله فقال وهو عاجز عن ابتلاع ريقه:

- والله يا أمير المؤمنين ما سكتت أم البنين حتى كان بطن الأرض أحب إلىّ من ظهرها .

* * *